التحولات الجارية على صعيد لبنان تصطدم بالوضع العربي الراهن على مستوى الانظمة بوجه خاص • وقد طرحت هزيمة اليمين الفاشي وانهيار مؤسسات السلطة اللبنانية •• مشكلات صعبة أمام الولايات المتحدة الاميركية وبعض الانظمة العربية • كيف تواجه القوى المناهضة للحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية هذه الاوضاع الجديدة ؟

أهم ما يشغل تفكير كيسنجر والفاشية اللبنانية واطراف التسوية في العالم العربي هو استعجال اقامة جهاز قمع يحاصر الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لفرض الشروط عليهما لمصلحة واشنطن ومن يسير في ركابها •

حتى بداية هذه العشرة ايام ، التي جاءت في اعقاب معارك الفنادق والجبل، كان يبدو ان تحالف الحركة الوطنية ـ المقاومة الفلسطينية قد حقق انجازين اساسيين :

أولا : الحاق الهزيمة بالقوى اليمينيةالفاشية، عسكريا ؛ واحداث حالة من البلبلة والتضعضع في صفوفها تنذر بانتهاء دورها كقوى رجعية فعالة وصاحبة مبادرة • وبالتالي اختلال ميزان القوى في لبنان لصالح قوى التغيير ؛ التي تقودها فئات برجوازية صغيرة وطنية واصلاحية، ووضوح امكانية وضرورة المضي قدما في تعمق « الثورة السياسية » في لبنـان •

وثانيا ، كان مغزى هزيمة اليمين وانهيار مؤسسات السلطة انه بات مستحيلا ، في المدى المنظور ، ان يحاول اي نظام لبناني ، او اي حزب فاشي ، الصدام مع المقاومة • وبالتالي ، كان يبدو ان المقاومة سوف تتمتع للمرة الاولى بحرية حركة شبهتامة ـ على الاقل من زاويةالعوامل الداخلية ـ في لبنان ، الامر الذي يقوي كثيرا في اوضاعها العسكرية والسياسية وفي استقلاليتها السياسية بالاخص • ومن الزاوية الاسرائيلية المباشرة فان الحاجز « السلطوي » الذي كان يقف بين المقاومة وحدود فلسطين قد سقط ؛ وبات الفلسطينيون احرارا في استخدام منطقة الحدود الجنوبية • وربما زادت خطورة الموضوع لمحاذاة الجنوب لمنطقة الجليل ؛ ذات الاغلبية العربية ؛ ولوقوعه ايضا ضمن منطقة الجبهة السورية ـ الاسرائيلية •

حركة الانظمة

عند هذا الحد كان لا بد من حدوث تحولات واضحة في منطق التحالفات ـ الذي ساد المراحل الاولى من الصراع (راجع العدد السابق من « الهدف ») ؛ وايضا خروج الدور الاميركي الى حيز الظهور والتدخل المباشر عبر الموفد دين براون، والاتصالات الاميركية ـ الاسرائيلية ؛ الى جانب « نفي » انباء تحرك الاسطول السادس وتصريحات كيسنجر حول خطورة عدم وجود قوة قمع في لبنان •

وهنا ؛ ايضا ؛ كان لا مفر من ان تصطدم التحولات الجارية على صعيد لبنان والمقاومة بمسلمات الوضع العربي الراهن (على مستوى الانظمة خصوصا) وبقواعد التعامل مع الولايات المتحدة التي درجت عليها بعض الانظمة منذ ١٩٧٣ •

● فقد خرجت مصر ، اي النظام المصري ، من الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ونقضت علاقاتها السابقة مع الاتحاد السوفياتي ، واتجهت نحو التحالف السياسي الشامل مع الولايات المتحدة واوروبا الغربية ، وباتجاه الارتداد رأسماليا وسياسيا في الداخل •

● ولا يخرج النظام السوري ، رغم شروطه المتصلبة بالقياس لشروط السادات عن سقف التسويات السلمية • ويزيد من صعوبة التعامل الاميركي مع سوريا التراث البعثي الذي يدعي النظام الانتساب اليه ، وخطورة هضبة الجولان بالنسبة لاسرائيل بسبب موقعها الاستراتيجي • ومع ذلك فالمفهوم ، سوريا واميركيا ، ان البحث عن حل ، او عن حلول متوالية ، هو جوهر العلاقة بين النظام السوري والولايات المتحدة • كذلك يدخل ضمن العلاقة التي استجدت بعد ١٩٧٣ مسألة تقديم العون التكنولوجي لسوريا ، ومحاولة ايجاد اتفاقيات وتسويات بالنسبة للقضايا السياسية الطارئة في المنطقة المحيطة •

● ضمن هذا الاطار تقوم علاقة الاردن بسوريا • فلم يحدث تغيير ما في الوضع الاردني ، نظاما وكيانا • ولم يتنازل الملك حسين ادنى شعرة عن موقفه تجاه المقاومة • ولكن العلاقة الاردنية ـ السورية ملائمة من الزاوية السورية اذ تعطي الموقف السوري ثقلا اكبر • وهي ضرورية من زاوية الاردن بعد تخلي مصر عن دورها العربي ، ولعجز الاردن عن فرض نفسه كطرف مقبول في تسوية منفردة • ثم انها مقبولة جدا من زاوية الولايات المتحدة لانها تشكل نوعا من تغطية سياسية للاردن ، ولان ارتباط الاردن بسوريا يزيد من قوة العناصر اليمينية في النظام السوري ، وبالاساس لانهذه العلاقة دليل ساطع على استمرار سوريا في اتباع خط البحث عن تسوية •

● ولا تختلف الامور لو تطرقنا الى الصورة العربية الاشمل • ان اغلب الانظمة العربية تقف الى جانب التسوية السلمية ، وتتحدد مواقفها السياسية بالاستناد الى هذا المقياس • وهكذا ، مثلا ، تدعم الانظمة النفطية سوريا ماليا من اجل ابقائها في خط « الاعتدال » ؛ وتقيم صلات حسنة مع بعض فصائل المقاومة من اجل ابعادها عن « التطرف » • ان هذه الرؤية للامور لا تتجاهل الخلافات فيما بين الانظمة او المحاور العربية ، لكن المرء لا يستطيع ان يتجاهل بالمقابل ان اطراف تلك الخلافات حريصون غالبا على « عدم الاساءة » للمصلحة المشتركة فيما بينهم • ان ليبيا هي احد « الشذوذات » عن هذه القاعدة • ولذا يتعرض النظام الليبي حاليا لعملية تآمر يشترك فيها النظامان المصري والتونسي وفئات من « الرجعية الداخلية » في ليبيا • واهداف الرجعية والولايات المتحدة متشابهة في حالة لبنان وليبيا •••

« ضوابط » أميركية للاوضاع العربية

اذا كانت تلك الصورة الحقيقية للعلاقات العربية ـ الاميركية ، والعربية ـ العربية ، فان التحولات التي اسفرت عنها الاحداث في لبنان تشكل اتجاها معاكسا لاكثر من سبب واحد •

ان خروج المقاومة منتصرة ، وانحناء النظام اللبناني والاحزاب اليمينية امام عجزها عن التصدي يعني اعطاء المقاومة ، رغم كل شيء ، زخما جماهيريا وسياسيا يزيد من قوة اتجاهاتها الرافضة للتسوية ، في حين يجعل الاطراف القابلة بالتسوية اكثر تصلبا واكثر « استقلالية » عن الانظمة العربية في ايـة مساومة تحلم بها • ويتناقض مع المنطق السوري الذي يريد حصر مركز المساومة بالنظام السوري بالدرجة الاولى • (وكان ذلك اساس « تأييد » النظام السوري للمقاومة في مستهل الصراع) • كما يتناقض الى أبعد درجة مع المنطق الاميركي الذي قد يقبل بتحسين « اوراق » النظام السوري ، عربيا ، بشرط ان يكون الثمن هو المزيد من تكبيل واضعاف الطرف الفلسطيني الخطر • ومن البديهي ان شرط الموافقة الاميركيـة على المبـادرة السورية ـ سياسيا وعسكريا ـ (وشروط اسرائيل للسكوت عن النفوذ السياسي والعسكري السوري في لبنان) كان ادخال المقاومة ضمن اطـار الموقف السوري والغاء استقلاليتها السياسية •

من جهة اخرى ، وعلى صعيد لبناني بحت ، فان تفتت الجيش اللبناني (واندحار الميليشيات) يعني « انفلات » الوضع اللبناني سياسيا ، واحتمال تطور الحركة الجماهيرية اللبنانيـة نحو اتجاهات اكثر جذرية ان بالنسبة للموقف من الولايات المتحدة واسرائيل ، او على الصعيد الاجتماعي • وهكذا : في حين يتم ايجاد « ضوابط » للاوضاع العربية » ، فلا تقبل الولايات المتحدة بوجود بلد تستطيع فيه الحركة الجماهيرية ان تمارس حرية التحرك بدون حدود مرسومة مسبقا، وقد عبر كيسنجر عن جوهر الموقف الاميركي حين اعرب عن تخوفه من عدم وجود اية قوة قمعية داخلية في لبنان •

قطـع الطـريق على « الانتداب » الخارجي

قلنا في البداية ان هزيمة اليمين الفاشي باتت تعطي قوى التغيير في لبنان امكانية وضرورةتعميق « الثورة السياسية » • والواقع ان هذا الجانب يشكل هو الاخر مصدر قلق لمعظم الانظمة العربية والولايات المتحدة على السواء •

ان الظروف العربية لا تتيح اخراج الاقتصاد اللبناني من حيز نمط انتاج الخدمات • ولذا كان طبيعيا ان تقتصر مطالب الحركة الوطنيه على مطالب سياسية و « اجتماعيه » • ولكن الظروف الداخلية ، وتوازن القوى الحالي ، يتيح النضال المستمر والناجح من اجل تثوير البنى السياسية واجراء عمليه تحويل جزئي في البنى الاجتماعية القائمة • ويمكن ان يتم ذلك عبر بضعة سنوات سوف تستغرقها عملية بناء نظام بديل للنظـام الحالي • ولن ينتهي هذا النضال الى الغاء الطابع الرأسمالي للنظام ، ولكنه سيفرس فيه ملامح وطنية وديمقراطية حقيقية ، وسوف يكون الى حد ما نتاجا للارادة الشعبية • والشرط الرئيسي لهذه العملية هـو المؤول، دون اي « انتداب » خارجي يلجم حرية التحرك السياسي للحركـة الوطنية

هنا ايضا لا بد من النضال لتحقيق هذا الشرط، ان عملية اعادة صنع النظام ، كما قد تراهـا الحركة الوطنية ـ تثير المخاوف العربيـة لعدة اسباب • اولا ، لانهـا تتـم على اساس « التسييس » الشعبي • ان الجماهير اللبنانية « مسيسة » وهي تشارك في القتال ، وفي المطالبة، وفي ابداء الرأي • وذلك في مقابل الكبت الفوقي لاية مبادرة جماهيرية في الاقطار العربية الاخرى • وثانيا ، لان النموذج «الديمقراطي» الذي اسفرت عنه النضالات الشعبية في لبنان (حرية التعبير المكتوب والشفهي ، حرية الاجتماعات ، حريـة انشاء الاحزاب والحركات ••) يشكل نموذجـا مضادا للكثير من الاوضاع العربية بما فيهـا السائدة في ظل انظمة « تقدمية » • وثالثا ، المهمة التي تقف في وجهه ، التخلف الكبير للبنـى السياسية والاجتماعية العربية من هذه الزاوية •

كيسنجر : قوة قمعية في لبنان

ان العديد من البنى القديمه تستمر على قيـد الحياة ، حتى في ظل الانظمة « التقدمية » ، وهي تمارس تأثيرها في الحياة اليومية والسياسية ، كما انها مؤهلة لان تتحول الى مشاكل خطرة في اي وقـت •

ان التناقض القائم بين تحالف الحركة الوطنية ـ المقاومة الفلسطينية وعدد من الانظمة العربيـة اكثر من سبب ، مباشر وغير مباشر • وسـوف يتعرض هذا التحالف لضغوط مستمرة وقوية تهدف الى « تعقيمه » ـ اي ازالة خطره ؛ ومحـور هذه المحاولات هو بالطبع النقطة « الامنية » ـ اي ايجاد قوة قمع بديلة لقوة القمع التي اسقطها نضال الجماهير •

لحظـات مصيرية

كيف نجابه هذا الموقف ؟ بتعميق التحالـف اللبناني الفلسطيني ، وبمخاطبة الجماهير العربية مباشرة ، وبالرفض الكامل للمخططات «الانتدابية» الاجنبية منها والعربية • ان اية مساومة تتيـح لمشاريع الانتداب ان تدخل دون معارضة سـوف تكلف الشعبين اللبناني والفلسطيني ابهظ الاثمان، واذا كنا نواجه اليوم لحظات مصيرية وحرجـة فليس ذلك بسبب ضعف التحالف الفلسطيني ـ اللبناني الجماهيري بل بسبب قوة هـذا التحالف وخطره على الاوضاع العربية المتخلفة والاديمقراطية والسائدة في خطوط المساومة مع العدو •

وبوسع التحالف اللبناني ـ الفلسطينيالجماهيري ان يستفيد الى اقصى حد من عاملين : من جهة ؛ العزلة الجماهيرية التي تعانيها الانظمة العربيـة المتفاهمة مع الولايات المتحدة ؛ وردود الفعـل البعيدة الاثر التي سوف تحدثها اية مجابهة مـع هذا التحالف من جانب اي نظام عربي • والغالب ان ردود الفعل السلبية لن تقتصر على احتمـالات الانفجارات الشعبيـة ؛ بل انها قـد تزعزع التحالفات الحاكمـة في بعض الاقطار العربية • والمعروف ان الطبقة الحاكمة في اكثر من قطر عربي مكونة من ائتلاف بين قوى ريفية ومدنية ، وقوى رجعية واخرى راديكالية •• مما يعرض لحمتهـا لخطر التفتت امام اية « صدمة » جماهيرية • والامر الاخر الذي ينبغي ان تستفيد منه الحركـة الشعبية في لبنان هو « تشابك » عناصر الموقـف الاميركي في الشرق الاوسط • فمقابل استعدادات اسرائيل للتدخل العسكري ، او مظاهرات الاسطول السادس ، تبرز ضرورة مراعاة النظام المصري الذي قد يطيح به اي غزو امبريالي • وهذا ناهيك عن التناقضات بين نظام واخر ، وبين الولايـات المتحدة والانظمة المتفاهمة معها •

وفوق ذلك، فان الجماهير اللبنانية ـ الفلسطينية اصبحت تملك تجربة عسكرية وسياسية هائلة ، خاصة في اعقاب سنة الحـرب الاهلية • وبوسع الجماهير اليوم ، اذا ارتفعت القيادات والتنظيمات السياسية ، الى المستوى المطلوب من الوعـي والجرأة ، ان تدافع جيدا •• وان تتخذ مبـادرة الهجوم على الصعيد العربي •

مصطفى